مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

جوانب من تاريخ الإماء المغربيات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين من خلال كتابات الرّحّالة الأوربيين

د. مجيد هلال

دكتوراه التاريخ من جامعة محمد الأول

أستاذ التاريخ والجغرافيا بالتعليم الثانوي

وجدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

تبتغي هذه الدراسة الوقوف عند فئة الإماء من النساء المغربيات، كفئة من الفئات الاجتماعية بالمغرب، التي من النادر جدًا أن نجد لها حضورًا ضمن الكتابات التاريخية، وظلت من الفئات المهمشة إسطغرافيا، رغم القضايا والإشكالات التي تحيط بتاريخ هذه الفئة، لا سيما عندما ترتبط بالمرأة المغربية. ومن هذا المنطلق تتجلى أهمية دراستنا، التي تهدف إلى تسليط الضوء على هذه الفئة، وذلك عبر ما احتفظت به كتابات الرحالة الأوربيين، باعتباره من المصادر التاريخية الموازية التي لها أهميتها في ملإ تلك البياضات التي تركتها الكتب التاريخية التقليدية المباشرة، ووضع تلك الفئة في الهامش، وصنفتها ضمن التاريخ المسكوت عنه. ولملامسة هذه الظاهرة؛ أي استرقاق المرأة المغربية، ستعمد الدراسة إلى اعتماد منهج تاريخي قوامه الوصف والتحليل والتفسير ثم التركيب، من خلال الاعتماد على ما جاء في المتون الرحلية الأوربية من معطيات وإشارات، وذلك لتحريك إشكالية استعباد المرأة المغربية بالمجتمع المغربي، والتساؤل عن أهم حيثيات وسياقات هذه الظاهرة؛ إشكالية ستفضي لا محال إلى مجموعة من النتائج التي وصلت إليها الدراسة، لعل أهمها: أن استرقاق المرأة المغربية كان حاضرًا في المجتمع المغربي إلى غاية فترات متأخرة من القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين، وهي ظاهرة كان لها ارتباط بظروف اجتماعية خاصة بامرأة المغربية ممن دخلن ضمن فئة الرقيق من النساء من جنسيات أخرى، وكذلك ارتباطًا بصراعات قبلية أو طمعًا في الربح المادي من وراء استعباد المرأة المغربية ودمجها ضمن تجارة العبيد بالمغرب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٥ أغسطس ٢٠٢٤

تاريخ قبول النشر: ١٨ سبتمبر ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الإماء؛ المرأة المغربية؛ الفئات المهمشة؛ استرقاق؛ العبيد؛ كتابات الرحالة الأوربيين؛ تاريخ المغرب الحديث والمعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.312798.1162

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مجيد هلال، "جوانب من تاريخ الإماء المغربيات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين من خلال كتابات الرّحّالة الأوربيين".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الثامن والستون؛ أبريل ٢٠٢٥. ص ١٥٣ – ١٦٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: majido02@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

لم تسلم المرأة المغربية، بأن يُدفع بها ضمن فئة الإماء، كغيرها من النساء من جنسيات أخرى، وذلك في إطار نظام الرّق والعبيد بالمغرب، هذا النظام الذي شاع في مختلف المجتمعات البشرية "بشكل لا يجرأ أحد على إلغائه، فقد كانت جميع الأمم تنظر الى الرّق على أنه حالة اجتماعية مقررة"[١]، لذلك، فإن هذا النظام لم يكن حكرا على مجتمع دون الآخر، أو ثقافة دون الأخرى، بل شمل مختلف الثقافات والحضارات، فهو ظاهرة عالمية، متجذرة منذ الحضارات القديمة، وإن المسلمين من الشعوب التي تعاملت بنظام الرّق والعبيد، فرغم أن التعاليم الإسلامية ترفض مثل هكذا ظواهر وسلوكات، وعملت على القضاء عليها في ظل انتشارها بالمجتمع قبل مجيء الإسلام، أو على الأقل التخفيف منها، لكن اللافت للانتباه استمرار هذه الظاهرة التي ظلت نشيطة ومعمولا بها لفترات طويلة، وقرون ممتدة ما بعد ظهور الاسلام، "ولا شك أن الدين خطاب إنساني وإنصافي في جوهره، غير أن الثقافي شيء آخر، وهو شيء أثبت قدرةً على تحويل أي خطاب مهما كانت إنسانيته وكليته، إلى تحويله إلى نص مجير لمصلحة النسق وحسب منطقه"[٢]؛ وإن النسق الثقافي للمجتمع المغربي ليس باستثناء، إذ ظل نظام الرق والعبيد حاضرا، ولم يقطع مع هذا الظاهرة، التي ظلت مستمرة إلى حدود فترات متأخرة من تاريخ المغرب. فنظام العبودية كممارسة لم تظهر مع دخول الإسلام إلى المغرب والمغرب العربي عامة، بل كانت موجودة منذ فترة الاحتلال الروماني[٣].

وإن المرأة المغربية قد شكلت إحدى عناصر هذا النظام، حيث أُدرجت ضمن فئة العبيد والإماء، وهذا ما نستشفُّه من خلال بعض الإشارات والمعطيات التي احتفظت بها مصنفات الرحلة الأوربية وكشفت عن بعض ما يكشف عن وضعية وتاريخ هذه الفئة المهمشة والمُستضعفة، لا سيما ما يرتبط بالمرأة من الإماء، في ظل سكوت أغلب المصادر التقليدية عندما يتعلق الأمر بهذه الفئة، ما جعل موضوع الإماء من النساء المغربيات من المواضيع التي من النادر الالتفات إليها من طرف الباحثين، رغم أهميته وحاجتنا الماسة إلى الحفر فيه، لأنه موضوع لا يدرس فقط بعينه، وإنما تحيط به عدة قضايا التي ترتبط بتاريخ المغرب، وهي قضايا يختلط فيها الاجتماعي بالثقافي والديني و كذا الاقتصادي والسياسي، التي أسهمت في إنتاج ظاهرة الرق بالمغرب، و على وجه الخصوص ما له صلة بنظام الرق النسوي، أي استرقاق المرأة المغربية و من داخل المجتمع المغربي، وعلى هذا الأساس تأتي أهمية هذه الدراسة، للنبش في تاريخ الإماء من النساء المغربيات، وتسليط الضوء ما أمكن على هذا الموضوع، استناد إلى ما تحويه متون الرحالة الأوربيين خلال فترات مختلفة من تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، اعتمادًا على بعض النماذج من هذه الرحلات، والهدف من ذلك محاولة تتبع كل ما له صلة بموضوع استعباد المرأة المغربية بالمغرب، لتشكل إلى جانب نساء من جنسيات أخرى سلعة من السلع التي كان يتاجر بها تجار العبيد بالمغرب في الأسواق المخصصة لهذا الغرض أو في فضاءات أخرى.

لذلك الدراسة تسعى إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات المهيكلة لإشكالية استرقاق المرأة المغربية بالمغرب، لعل في مقدمة هذه التساؤلات ما يلي:

- ما مدى حضور المرأة المغربية ضمن تجارة العبيد بالمغرب؟ وما مظاهر ذلك؟
- وكيف كان يتمُّ تنظيم وتداول هذه العملية؟
- ما الدوافع والسياقات التي كانت تدفع بالمرأة المغربية إلى أن تكون واحدة من فئة العبيد والإماء بالمغرب؟
- هل بالفعل، الاعتماد على كتابات الرحالة الأوربيين في مثل هذه المواضيع والقضايا في تاريخ المغرب يبقى ضرورة وأولوية بيبليوغرافية؟

إذن، كلها تساؤلات ستسعى الدراسة إلى الإجابة عنها انطلاقًا مما ورد في نصوص الرّحالة الأوربيين من معطيات ذات الصلة بموضوع الدراسة.

أولاً: المرأة المغربية ضمن أسواق العبيد بالمغرب

قليلة هي تلك الاشارات، التي تتحدث عن المرأة المغربية ضمن فئة الإماء من النساء من خلال المصادر التاريخية التقليدية والمباشرة، إلى درجة تكاد تكون

غائبة تماما بين متون هذه المصادر، وهذا ما يدفعنا بقوه لاقتحام مصادر ومصنفات موازية وغير مباشرة للبحث في مثل هكذا قضايا مسكوت عنها، لعلها تخرجنا من ذلك الضيق الاسطغرافي الذي يعرفه هذا الموضوع، وتفتح لنا المجال لتسليط الضوء على قضية استرقاق المرأة المغربية، وإن نصوص الرحالة الأوروبيين من أبرز تلك المسالك التي نسلكها، والتي تُعَبِّدُ طريق البحث أمامنا في تاريخ المرأة المغربية، وما يَحُفُّهُ من قضايا وإشكالات؛ فقد استمد الكثير من المؤلفين الذين تناولوا الموضوع معلوماتهم من خلال كتب الرحلات[٤]، إلى جانب مصادر بديلة أخرى، وبالتالي فإن النصوص الرحلية المعتمدة في دراستنا هذه، قد وردت بها معطيات وإشارات، فرغم قلتها أحيانا، إلا أنها تبقى ذات قيمة في ظل الشُّح الذي تعرفه المصادر التاريخية الرسمية، فهذه النصوص الرحلية "إفادتها كانت كبيرة فيما يخص موضوع الرقيق، من حيث الإشارة إليه كفئة مكونة لتجمع بشري، أو من حيث إيرادها معلومات تاريخية هامة"[٥].

هذه المرأة المغربية التي لم تسلّم من أن تكون عنصرا من عناصر نظام الرّق، إلى جانب جنسيات أخرى من العبيد والإماء، خاصة من الزنوج الأفارقة ، أو من الأسرى البيض من المسيحيين، فقد كان هناك من العبيد المغاربة[٦]، ودخلت هذه المرأة في عملية البيع والشراء، وخضعت لقاعدة العرض والطلب ضمن الأسواق المغربية الخاصة ببيع العبيد، والتي ذكرتها مصنفات الرحلة الأوروبية، ووصفتها بل وأثارت دهشتهم، فهذا "موليراس"(August.Moulleras) يقول "إن الشيء المثير بالنسبة لزائر سوق الأحد[٧]، هو بكل تأكيد المكان المخصص لبيع الزنوج والغلمان والعايّلات"[٨]، ويذكر أيضًا "غابرييل فيتر" (Gabriel Veyre) على أنه "في فاس، كما في مراكش، تنعقد سوق عمومية ثلاث مرات في الأسبوع لبيع العبيد، وهي تنعقد في غير ما مكان معلوم، وإنما هي ساحة صغيرة، كثيرا ما رأيتها تعج ببائعين ومشترين"[٩].

وقد أكدت هذه النصوص وجود أسواق للعبيد بالمغرب، وهي أسواق خاصة لهذا الغرض، وظلت مستمرة إلى حدود قريبة من الزمن، فمثلا "كانت سوق العبيد في مراكش ملحقا بسوق المدينة العام، وظلت هذه السوق على رواجها حتى نهاية القرن التاسع عشر"[١٠]، بل إن استمرار سوق العبيد، قد تعدى حدود القرن التاسع عشر، خاصةً سوق فاس، وهذا من نستنتجه من نص " غابرييل فيتر" أعلاه، على أساس أن رحلته للمغرب كانت ما بين ١٩٠١و١٩٠٥، في فترة السلطان المغربي مولاي عبد العزيز، وهذا مؤشر زمني يصعد بنا إلى بدايات القرن العشرين، مع الإشارة إلى أن بيع العبيد كان منتشرًا أيضًا في القرى والبوادي، وقد اشتهرت بعض المناطق بهذه التجارة، "ومن أهم تلك المراكز، "إيليغ" في قلب الأطلس الصغير بسوس جنوب المغرب"[١١]، وقد كان العنصر النسوي، حاضرًا مع باقي فئات العبيد من الرجال والأطفال، حيث يعرضون في ساحات هذه الأسواق، في مكان مخصص ومنظم لهذا الغرض، ففي مراكش كان هذا المكان عبارة "عن ساحة مربعة مُسَوَّرة بحُوَيِّط"[١٢]، وقد كان المغاربة يلجون هذه السوق، ممن لهم حاجة في العبيد، وذلك لأجل شراء أحدهم سواء من الرجال أو النساء، ومن مختلف الأعمار، وبالنسبة للنساء، نجد في سوق فاس، كما جاء في رحلة "بيير لوتي" (Pièrre.lotti) وهو يصف طريقة تفقّد النسوة من الإماء اللواتي يعرضن للبيع في هذه السوق، قائلا: "كان هناك شيوخ بألبسة بادخة ناصعة البياض، يقومون بتفحصهن وتلمُّس أطرافهن، وجذب أذرعهن، بل وفتح أفواههن للتحقق من سلامة أسنانهن، وفي النهاية وإن لم يجدن مشتريًا، فقد عاد بهن البائع مطأطآت الرؤوس مثل قطيع حزين"[١٣]، وفي نفس السياق تشير الباحثة" حسناء داود"، وهي تتحدث عن إحدى أسواق النخاسة بتطوان قائلة: "إذ يقف النخاسون أو الدلالون المكلفون ببيع العبيد، وكذا الدلالات المكلفات ببيع الإماء، ويقع الاتفاق بين البائع والمشتري، فيأخذ المشتري عبده إلى بيته، بينما ترافق الدلّالة الأمَة المبيعة إلى بيت مولاها الجديد، وقد ترافق معها إماء أخريات، حتى توفر لصاحبة البيت فرصة الاختيار بين المعروضات للبيع"[١٤].

وذكر أيضًا الرحالة "غابرييل فيتر" (G.Veyre)، على أن عملية عرض وبيع النساء من الإماء بسوق فاس، كانت تتم في أجواء شبيهة بمعرض، الذي يقول عنه هو معرض صغير، إذ لا يزيد عدد المعروض للبيع الواحد

بالمزاد العلني، عشرة إلى إثنتي عشر بين عبيد وإماء[١٥]، ويُفَصِّل أكثر في الطريقة والأجواء التي كان يتم فيها تسويق هذه الفئة، إذ يجلس المشترون مقرفصين على أعقابهم من حول الساحة، منتظرين وصول البضاعة، فإذا جاءتهم، جعل الدَّلاّل الذي رأيته في مرات أخرى، يعرض الحلي والثياب القديمة، كعرضه حينذاك هؤلاء، وصارت الأَمَة تنتقل من مجموعة إلى أخرى، ويصيح الدّلال بالسعر المطلوب فيها، ويستفسره مَنْ تروق لهم من المشترين في سن هذه المخلوعة المسكينة وسوابقها، وفي ما قد يكون اتفق لها من أمراض، ويأخذ في تفحُّصها لمسا وجَسّا، كأنما يتفحص فرسا من الأفراس أو بغلة من البغال، من ثدييها إلى القدمين"[١٦].

إذن؛ هي كلها شهادات توثق لنا صفحة من صفحات التاريخ المهمش والمنسي، حيث يتضح جليًا من خلال هذه النصوص، بأن المرأة كانت حاضرة ضمن نظام العبيد ككل، وكانت سلعة يباع ويشترى فيها، وفق نظام تسويقي متعارف عليه ومألوف عند المغاربة، وذلك عبر معرض لهؤلاء الإماء، و في مزاد علني يتولى فيه "الدلال" عرض هؤلاء النسوة أمام الملإ من الحاضرين ممن لهم حاجة في شراء إحداهن أو أكثر، كما تصور لنا هذه النصوص طريقة ومعايير اختيار الأَمَة المناسبة والأصلح من بين الإماء المعروضات، إذ يعتبر معيار السن والقوة الجسدية والسلامة الصحية، أبرز المعايير التي تأخذ بعين الاعتبار من قبل المشتري في اختيار الأمة، وفي تحديد سعرها، وذلك إلى جانب معايير أخرى، فقد ذكر "أوكيست موليراس" في حديثه عن منطقة "كتامة" بشمال المغرب، قائلاً: "عاصمة الغلمان الراقصين والعايْلات[١٧] الراقصات النصف العاريات، وفي كل هذا الحشد من الأشخاص يُباع ويُشترى (...)، فهم يعرضون في الأسواق مثل المواشي، ويتم إظهار مفاتنهم والحديث عن مواهبهم، ومنهم من يبلغ ثمنه ٣٠٠ فرنك "[١٨]، أما إذا لم تتوفر على تلك المفاتن والمواهب، فإن السعر العادي "لا يتعدى ١٥٠ فرنكا"[١٩]، وهذا ما يوضح أن بيع الإماء كان معمولاً به داخل أسواق العبيد بالمغرب، وكان يشمل أيضًا المرأة المغربية حيث كانت تباع على أساس أنها أمة من بين أولئك الإماء في الأسواق، بل وكان يعتبر الأمر عاديًا، وينظر إلى الظاهرة على أنها مألوفة، لا حرج فيها، في وسط مجتمع يدين بالدين الإسلامي، إلا أن سلطة العُرف، وقوة النظام الثقافي، جعل من هذه الظاهرة نشيطة ومستمرة داخل المجتمع المغربي، وما يؤكد وجودها، تلك الشهادات القيِّمة والثمينة التي جاءت في صفحات هؤلاء الرّحّالة، وإلا كيف يمكن أن يتحدثوا عن هذه الظاهرة، بل والوقوف عندها بالوصف والتوثيق، وهذا ما يعكس وجود هذا النظام داخل المجتمع، بل وبشكل عادي، فهذه قبيلة "بني مساور" بأقصى شمال المغرب، يقول عنها "أوكيست موليراس" بأن "العايلات والغلمان الذين يباعون كالعبيد وبشكل عادي في القبيلة"[٢٠].

ثانيًا: تنظيم عملية بيع وشراء الإماء بالمغرب

لقد كان بيع وشراء الإماء كما هو الحال مع عموم العبيد، يخضع لقوانين منظمة لعملية البيع والشراء، فمن بين ما تفيدنا به نصوص الرحالة، أنه بعد عملية المُساومة، واختيار الأمة المناسبة، والاتفاق حول سعرها، كان يُحَرَّرُ عقد عند العُدول لامتلاك هذه الأَمَة من طرف سيدها، ولنا في النص الآتي ما يوضح ذلك، وهو مما جاء في نص الرّحالة ، "غابرييل فيثر"، الذي يذكر في هذا الصدد ما يلي: "... إذا فرغ من تلك النقاشات والفحوص والمساومات الكثيرة، توجه الثلاثة: المشتري والدلال والأمة إلى العدول، المكلف بالتصديق على الشراء وتحرير عقد شرعي له، يكون بحوزة الأمة دائمًا ما يشبه الحالة البيانية، تبين أصلها وأحوالها في الخدمة، والأسعار التي تعاقبت على بيعها، ولا يزاد إلى هذه البيانات غير سطر أو اثنين في إفادة انتقالها إلى بيت جديد، وما كان ليفعل غير هذا بالبهيمة من البهائم من حيث بيعها لولا كانت لها أوراق وليس من اختلاف غير هذا، بين الأمة والبهيمة"[٢١]، ولنا في هذا ما يصف ويحدد معالم سير هذا النظام ومعاملاته، وبهذا تدخل الأمة ملكية من اشتراها، فهو سيدها ومالكها بموجب العرف والقانون، وحسب الباحث "رحال بوبريك" فقد كانت السوق تخضع لمراقبة المخزن ولضوابط عمليات البيع وتحصيل الضرائب لخزينة الدولة، إذ كانت تؤدى للمخزن أعشار عن بيع الرقيق"[٢٢].

وتجدر الإشارة هنا، أيضًا أن السوق لم يكن الفضاء الوحيد المخصص لبيع وشراء هؤلاء النسوة من الإماء بل كان هناك فضاء آخر، هذا الفضاء يدعى كما عثرنا عليه في إحدى النصوص الرحلية المعتمدة بـ "بيت التاجر"، وهو بيت كان يضم فقط أجود الإماء وأغلاهن سعرًا، على خلاف أولئك المعروضات في الأسواق المعتادة، كما وقفنا على ذلك سلفا، "فإذا رغب المشتري في جياد الإماء، فعليه أن يطلبهن في بيت التاجر"[٢٣]، وهذا ما يبرز أن نظام الإماء، كان يصنفهن إلى طبقتين، طبقة هي الأرخص والتي كانت تُعرض وتباع في الأسواق العامة والشعبية، وطبقة ثانية، كانت تضم أجود الإماء وأغلاهن سعرا، وكان يخصص لهؤلاء الإماء مكان خاص، وليس متاحا للعموم، فتُعرَض هؤلاء النسوة بطريقة خاصة وبرتوكول خاص، داخل "بيت التاجر"، هذا الأخير الذي "يُعلِم زبناءه كلما تلقى بضاعة جيدة من زنجيات أو من ناحية مراكش، تلك الصبايا اللائي اختطفن، كما تختطف الأنعام ، خلال ما ينشب بين القبائل من حروب"[٢٤].

وإن ما يفهم أيضًا من خلال هذه الإشارات، أن المرأة المغربية كانت واحدة من بين أولئك النسوة من الإماء، وهن من نواحي مراكش، ممن يختطفن أثناء نشوب حروب بين القبائل، ومن جهة أخرى فهو يبين لنا كيف كانت تتم عملية البيع لهؤلاء النسوة، وذلك عبر إخبار الزبناء ممن لهم حاجة في الإماء، وهي دعوة لهم لزيارة بيت التاجر، وهنا، نسوق نصا للرحّالة " غابرييل فيتر" (G.Veyre) يصف فيه أجواء عملية البيع والشراء، لهذه الطبقة من الإماء، قائلاً: "فإذا دخل المشترون بيت التاجر تلقاهم بالحفاوة والترحيب، ثم قدم إليهم الشاي المنعنع، وقد يديره عليهم مُعَنْبَرا، حتى أخذوا مجالسهم من ذلك البيت، خرجت إليهم من النساء، وما هن إلا الإماء المعروضات للبيع، من تحمل سكرا، ومن تحمل صينية عليهم أكوابا، ومن تجلب الماء، ومن توقد المجمر، عارضات أنفسهن في مألوف أشغالهن اليومية، ليحكم الهاوي على الأمَة منهن من المهارة التي تأتيها فيما تقوم به أمام ناظريه من تلك الأشغال، فإذا أشَدَّت الأمة منهن اهتمام الواحد من الضيوف إليها دون زميلاتها، استبقاها لحظة يحادثها، فإذا حانت إشارة اليها من البائع، خرجت وجرى التداول في سعرها، وأسعار هذه النوعية من الإيماء باهظة تتراوح بين ٢٥٠٠ و٣٥٠٠ فرنك"[٢٥].

وعلى ضوء هذا النص، يتضح أن تسويق هذا النوع من الإماء كان يتم بطريقة راقية، وعلى شكل مشاهد استعراضية تعكس القيمة التسويقية للإماء المعروضات وجودتهن، على خلاف نظيراتهن من الإماء في الأسواق العمومية، ولعل السعر خير دليل، فهو بالنسبة لإماء "بيت التاجر"، يزيد بحوالي عشرة مرات مقارنة بسعر الإماء بالأسواق العادية، وهذا يعكس مرتبة وصنف هؤلاء الإماء، لذلك كان "المولعين بهذه التجارة، فكانوا يتفرجون على جياد العبيد داخل البيوت"[٢٦]، وهذا ما يعطينا إشارة على أن نظام العبيد والإماء، كان يخضع لتصنيف هرمي، فهناك إماء من الدرجة الثانية، وهن رخيصات السعر، وعادة ما يوكَل لهن مهام تتلاءم مع وضعيتهن، وهناك إماء من الدرجة الأولى، وهن من الصنف الرفيع، تتوفر فيهن الجودة، لذلك يبعن بسعر مرتفع، ويعرضن بطريقة راقية وفي أماكن مخصصة كما رأينا ذلك، وغالبا ما يوظفن في أشغال هي أفضل وأرقى من نظيرتها عند إماء الأسواق، فالرقيق الذين يملكون مميزات خاصة من الإماء: كأن تكون جمالية، أو مهارة في الطبخ والموسيقى والغناء، أو كأن يكونوا رجالا مخصيين، لم يكونوا يعرضون في السوق لأن الطلب عليهم كان من فئة الخاصة"[٢٧].

ثالثًا: دوافع وظروف دخول المرأة المغربية ضمن فئة الإماء

إن المرأة المغربية، لم تكن لتقبل على نفسها أن تكون في وضعية الإماء، وداخل نظام الرِّق، ولم تكن لترضى على نفسها أن تباع وتشترى في أسواق النخاسة بالمغرب، لولا وجود بعض الدوافع والأسباب، التي دفعت بها إلى أن تكون ضمن نظام العبيد والإماء، ومن خلال ذلك المسح المعرفي الذي قمنا به عبر صفحات وسطور تلك المتون الرحلية الأوربية، تبين لنا أن المرأة المغربية كانت تدخل ضمن فئة العبيد إما بسبب الفقر والحاجة، أو بسبب الحروب والنزاعات القبلية.

فبالنسبة لدافع الفقر والحاجة، فمن بين ما ذكرته نصوص الرّحالة بأن " العايّلات والغلمان الذي يشترون بالأسواق، هم في العادة سبايا حرب أو أطفال اختطفوا من قراصنة أو بؤساء يبيعون أجسادهم، لأن الدعارة أصبحت هي موردهم الوحيد"[٢٨]، وبالتالي فالفقر والفاقة كان من بين الأسباب والدوافع، التي جعلت من المرأة المغربية الحرة تتحول إلى وضع الأمة، وذلك من أجل إيجاد ما تعتق به نفسها في ظل البؤس والعوز الذي تعيشه، والهروب من شبح الفقر ومعاناته، بل وتضطر الأسرة إلى بيع أطفالها، بما فيهم البنات، "وهذه الطريقة لا تتعلق فقط بالزنوج، ولكن تمتد أيضًا حتى إلى الفقير من السكان البيض لضيق وسائل عيشهم أيام الأزمات"[٢٩]، كما هو الحال في فترات الأوبئة، إذ ذكر صاحب "الاستقصا"، حين ضرب الوباء المغرب في عهد السلطان الحسن الأول، قائلا: " وفي هذه المسغبة مد النصارى أيديهم إلى الرقيق فاشتروا، وكان ابتداء ذلك أنهم كانوا يعاملون ضعفاء المسلمين وصبيانهم بالصدقات والإرفاقات ثم تجاوزوا ذلك إلى شراء الرقيق منهم، والأمر لله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد"[٣٠].

وفي سياق آخر، كانت تجد المرأة المغربية، نفسها تباع في أسواق النّخاسة، تحت وطأة تبعات الحروب والنزاعات القبلية، إذ كانت تتعرض للسبي، من طرف المنتصر في تلك الصراعات، حيث يتم بيعهن كإماء، وفي بعض الأحيان كانت المرأة المغربية تتعرض للخطف، فقد ورد عند "أوكيست موليراس"(Auguste Moullieras)، نصًا يروي من خلاله قصة إحدى النساء المغربيات، اللواتي كن يعانين الفقر، ويمتهن مهنة التسول، وتعرضها للخطف من طرف جماعة من الرجال، وبيعها في سوق العبيد، إذ يذكر قائلاً: "أثناء مرور محمد بن الطيب أمام معرض الأجساد البشرية هذا، نادته امرأة تعرَّف عليها فورا، لقد كانت هي متسولة "الجاية" – هي إحدى القرى بمنطقة جبالة شمال المغرب- التي اختُطفت أمام عينيه، وهي تعرض مع باقي العايلات للبيع، وتوسَّلت إليه بأن يخبر والديها بحالها، إذا ما رجع إلى قبيلتها [...] وبالفعل، فبعد مدة زمنية، التقى بمجموعة من الحياينة بقرية عين باردة، وبلَّغهم بالرسالة، وبذلك قدم والد المتسولة بأنفسهم إلى المكان الذي توجد فيه ابنتهم، وخلصاها مقابل قدر من المال، ثم قبولها من طرف مختطفيها"[٣١].

وإن في نص "موليراس" ما يفيدنا في أمرين أساسين، أولهما: هو تأكيد فعل سلوك الاختطاف الذي كانت تتعرض له المرأة المغربية من طرف بعض الجماعات، وبيعها في سوق العبيد والإماء، ودافع هؤلاء في اختطافها؛ الحصول على مقابل مادي ببيعها كأمة، والأمر الثاني الذي يستنتج من النص أعلاه، التأكيد مرة أخرى على أن المرأة المغربية بالفعل كانت تباع وتشترى أيضًا ضمن فئة الرقيق، ولم يكن الأمر حكرا على الأجنبيات فقط، وإن هذه الظاهرة؛ أي إدراج المرأة المغربية ضمن فئة الإماء، قد أثارت نقاشا على المستوى الرّسمي، إذ ورد في كتاب "إتحاف أعلام الناس" للمؤرخ المغربي "عبد الرحمان ابن زيدان"، رسالة مطوّلة للسلطان الحسن الأول، يعدد فيها بعض السلوكات والمخالفات التي وجب التصدي لها والتخفيف منها، ومن بينها ما ورد حول ظاهرة استرقاق النساء المغربيات وبيعهن، ومن جملة ما جاء في هذه الرسالة قوله: "ومن المنكر لا يسع التغافل عنه والتساهل في أمره، هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهرة باستعباد الأحرار، واسترقاقهم بدون وجه شرعي..."[٣٢].

كما جاء في أيضًا في رسالة موجهة من قاضي مراكش إلى السلطان الحسن الأول جاء فيها: " ... إن ما عظمت بلواه غصب أحرار المسلمين من هاتيك الجبال ما بين النساء وصبيان وبيعها على سبيل الاسترقاق لكثرة رغبة أهل الجاه أضفى الحال، وغلب الطمع إلى بيع المنتشية بسوق المدينة ... "[٣٣]، وفي نفس السياق، فإن الرحالة "فردريك وايسجربر"(F.Weisgerber)، في كتابه "على عتبة المغرب الحديث"، ذكر بأنه قد "صار تاجر الرقيق، يسعى إلى التعويض عما كان يأتي من تلك القوافل، بالاختطافات التي صارت تقع في سوس ودرعة على الأطفال من الحراثين، ذوي البشرة الضاربة إلى السواد، على الرغم من أنهم مسلمون وأحرار، وأن في تحويلهم إلى رقيق خروجا عن المبادئ والأخلاق الإسلامية"[٣٤]، ما يوضح بأن المغاربة كانوا قد استعبدوا نظراءهم من المغاربة الأحرار، بمن فيهم المرأة، وذلك

بهدف بيعهن وتعويض ذلك النقص الحاصل في العبيد من مصادر أخرى، من داخل إفريقيا، خاصة ما كان يعرف ببلاد السودان.

خَاتمَةٌ

وعلى ضوء كل ما سبق، وما ذُكِر حول موضوع المرأة المغربية، كأمة ضمن باقي الإماء بالمغرب، واعتمادًا على ما وصلنا إليه من استنتاجات وصور، استنادًا إلى ما ورد في كتابات الرّحالة الأوربيين، يجعلنا نفهم أن تاريخ المرأة المغربية، هو تاريخ متعدد الجوانب والزوايا، وإن انخراط المرأة المغربية ضمن فئة الإماء، هو انخراط لم يكن عن طواعية، وإنما أكرهت عليه المرأة المغربية، وقد أدرجت ضمن نظام الرقيق بصفة عامة، ولذلك كان بيعها أمرًا مألوفًا داخل المجتمع المغربي، بل وكان يتم بصيغة قانونية وعُرفية كما رأينا ذلك، ويكفي أن النصوص الرحلية قد أثبتت ذلك، وأكدت على وجود سوقين أساسين للعبيد والإماء، واحد منها في فاس والآخر في مراكش، هذه النصوص التي أعطت صورًا واضحة، تعكس جزءًا من الواقع الذي كانت تعيشه المرأة المغربية ممن ساقها القدر بأن تكون ضمن فئة الإماء، الأمر الذي جعل ظاهرة استرقاق المرأة المغربية بالمغرب له حضورها في تاريخ الرق بالمغرب، ولا يمكن التغاضي عنها، بل وجب الخوض فيها، لأنه و كما سبق الإشارة لذلك، الحفر في هذا الموضوع سيفتحنا على قضايا شائكة، قد وقفنا عند بعضها من خلال محاور هذه الدراسة.

أيضًا؛ من النتائج التي وصلت إليها الدراسة، إبراز مدى أهمية ووزن المصادر الرحلية في البحث التاريخي، وعلى وجه الخصوص ما يرتبط بتاريخ الهامش والمهمش من القضايا والفئات الاجتماعية، كما هو الحال مع موضوع العبيد والإماء في تاريخ المغرب، وغيرها من المواضيع المتروكة والمسكوت عنها، والتي يمكن للمصادر الرحلية الأجنبية أن تخرجها من دائرة العتمة الإسطغرافية التي فرضتها الكتابات التاريخية التقليدية، التي لم يكن من اهتماماتها الخوض في مثل هذه المواضيع، وكانت ترى أن اختصاص المؤرخ آنذاك، تدوين تاريخ الكرّ والفرّ، وتاريخ السير وتعاقب الدول لا غير.

لذلك، فموضوع الإماء من النساء المغربيات، لم نكن لنحيط ببعض جوانبه وحيثياته، لولا تلك النصوص الرحلية، التي تسمح لنا بتحريك وتنشيط الإسطغرافية المغربية من جديد، وترحل بنا نحو عوالم معرفية تظل مجهولة إلى حدّ بعيد، وظلت مركونة بين دهاليز الكتمان والتهميش الإسطغرافي.

الإحالات المرجعية:

(١) مصطفى الرفاعي، **الإسلام نظام إنساني**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ط١، د.ت، ص ١٢.

(٢) نادر كاظم، **تمثيلات التآخر، صورة السود في المتخيل العربي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤.ص ١٠.

(3) Mohmmed Ennaji, Soldats, domestiques et concubines : L'esclavage au Maroc Au XIXe siècle, Paris, Editions Balland,1994, p.16.

(٤) نحيل القارئ، للاطلاع والاتساع أكثر حول موضوع العبيد وما يرتبط به ببلاد المغرب على سبيل المثال إلى بعض الدراسات المتميزة: عبد الإله بنمليح، **الرق في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين**، منشورات مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٤.

ينظر أيضا الترجمة إلى العربية: **محمد الناجي، جُند وخدم وسراري، الرق في المغرب**، ترجمة محمد الغرايب، منشورات فاليا، ٢٠١٨. وهناك أيضا الدراسة الصادرة مؤخرًا: رحال بوبريك، **تجار العبيد: الروافد والسياقات والأنماط**، دار رؤية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٢٣، والدراسة التي قام بها الباحث عبد العزيز غوردو "آخر العبيد، الرق في مغرب القرن العشرين: تفكك المنظومة"، منشورات أكاديمية للدراسات الفكرية والتربوية، ط١، ٢٠٢٤"

(٥) عبد الإله بنمليح، **الرق في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين الخامس السادس الهجريين**، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص٢٤.

(6) Mohmmed Ennaji, op.cit, p.15.

(٧) يتواجد بقبيلة بني زروال بشمال المغرب.

(٨) أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، ترجمة من الفرنسية عز الدين الخطابي، منشورات تفراز، دار النجاح الجديدة، ط١، ٢٠١١، ص٦٠.

(٩) غابريل فيتر، **في صحبة السلطان**، ترجمة من الفرنسية عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٠٩، ص ٢٠١-٢٠٢

(١٠) محمد الناجي، **العبيد في المغرب، جنود وخدم وخليلات**، ترجمة من الفرنسية عبد الرحيم حزل، جذور للنشر، الرباط، ٢٠٠٧، ص١٦٦.

(١١) رحال بوبريك، " سوق العبيد، تجارة الرق في مغرب القرن التاسع عشر"، **مجلة أسطور**، العدد ١٤، يوليوز ٢٠٢١، قطر،صص: (٢٣-٤٦)، ص ٣٠.

(١٢) فرديريك وايسجربر، **على عتبة المغرب الحديث**، ترجمة من الفرنسية عبد الرحيم حزل، دار الأمان للنشر، الرباط ط٢، ٢٠١١، ص ٣٢.

(١٣) بيير لوتي، **في المغرب**، ترجمة من الفرنسية حسن البحراوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك بالدار البيضاء، ط١، ٢٠١٩، ص٨٨.

(١٤) حسناء داود، **تطوان، سمات وملامح من الحياة الاجتماعية**، منشورات محمد داود للتاريخ والثقافة، تطوان، ط١، ٢٠١٩، ص١٢٨.

(١٥) غابريل فيتر، **في صحبة السلطان**، م. س، ص ٢٠٢.

(١٦) نفسه، ص ٢٠٣.

(١٧) مصطلح بالدارجة المغربية، يستعمله بالخصوص ساكنة شمال المغرب، المقصود منه المرأة.

(١٨) أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، م. س، ص 455. (بتصرف)

(١٩) نفسه، ص٦٢.

(٢٠) أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، م. س، ص ٥٤.

(٢١) غابريل فيتر، **في صحبة السلطان**، م. س، ص٢٠١.

(٢٢) رحال بوبريك،" سوق العبيد، تجارة الرق في مغرب القرن التاسع عشر" م. س، ص٣٢.

(٢٣) غابريل فيتر، في **صحبة السلطان**، ص ٢٠٥.

(٢٤) نفسه، ص ٢٠٥.

(٢٥) غابريل فيتر، **في صحبة السلطان**، ص٢٠٥.

(٢٦) فرديريك وايسجربر، **على عتبة المغرب الحديث**، م. س، ص٣٣.

(٢٧) رحال بوبريك، **" سوق العبيد، تجارة الرق في مغرب القرن التاسع عشر"** م. س، ص ٣٣.

(٢٨) أوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، م. س، ص:٦١.

(٢٩) محمد الناجي، "حول الرقيق في المغرب ما قبل الاستعمار"، **مجلة أبحاث**، السنة الأولى، العدد الأول،١٩٨٣، صص (٥٥-٦٤)، ص ٦٢.

(٣٠) أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الجزء التاسع، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧، ص ١٦٥.

(٣١) اوكيست موليراس، **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، م. س، ص٦٢.

(٣٢) عبد الرحمان بن زيدان، **اتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الجزء الثاني، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية للنشر، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٧.

(٣٣) يُنظر محمد الناجي،" حول الرقيق في المغرب ما قبل الاستعمار" م.س، ص٦٣.

(٣٤) فردريك وايسجربر، **على عتبة المغرب الحديث**، م. س، ص٣٢.